ABBYY PDF Transformer+
Click here to buy
www.ABBYY.com

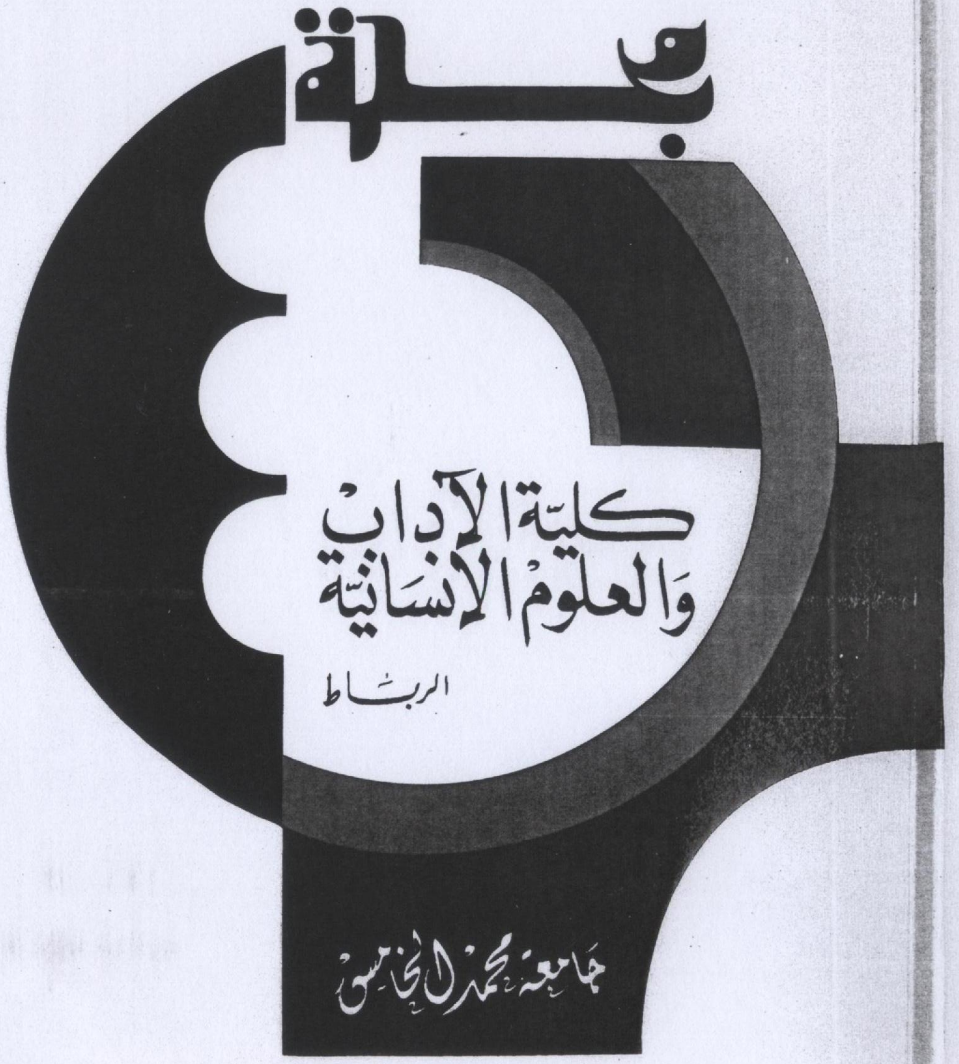

العدد الرابع والثلاثون

2014

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلـــــة : مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط
العـــــدد : الرابع والثلاثون سنة 2014
منشـــورات : كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط
الطبع والإخراج : دار أبي رقراق للطباعة والنشر – الرباط
حقـوق الطبـع : © محفوظة لكلية الآداب بالرباط بمقتضى الفصل 49 من ظهير (1970/7/29)
التسلسل الدولي : ISSN 0851-1160
الإيداع القانوني : 1977/1
ردمـــــك : 9981-59-069-X
الطبعـــة الأولـــى : في سنة 1436هـ / 2014م

الحرْكة أسلوب للحكم في العصر الوسيط: النموذج المريني

محمد حقي
كلية آداب – بني ملال

تتواصل دراستنا للحركة كأداة للحكم في العصر الوسيط في الغرب الإسلامي، فبعد النموذج الموحدي[1] نلتقي في هذا العمل مع النموذج المريني الذي يأتي في نهاية العصر الوسيط مما يمنحه الفرصة ليكون أكثر تعقيدا وتكاملا لاستفادته من التجارب السابقة ومن التراكمات الحضارية. فهل استطاعت الحركة المرينية أن تحقق هذا التفوق؟

يهتم المقال بدراسة الحركة في الفترة الممتدة ما بين دخول المرينيين مراكش عام 668هـ/ 1269م وموت السلطان أبي عنان عام 760هـ/ 1361م، فخلال هذه الفترة نضجت التجربة المرينية في الميدان دون نسيان استحضار مبدإ التدرج في تشكل صورتها النهائية. فقد بدأت بسيطة في عهد يعقوب المنصور ثم تطورت وتحسنت تدريجيا لتبلغ الأوج مع السلطانين أبي الحسن وأبي عنان. وسنعمل على تسجيل هذه التغيرات كلما كان الأمر ممكنا.

بالرغم من أن المصادر المختلفة للفترة تقدم بعض المعطيات المتفرقة هنا وهناك حول فترة ما من زمان الدراسة والتي اعتمدناها لمناقشة بعض التفاصيل والتحولات التي عرفها الجانب التنظيمي، فإن أحسن ما كتب هو ما قدمه شاهدا

(1) انظر مجلة كلية الآداب بالرباط العدد 27 لسنة 2007.

عيان شاركا في الحركة وسجلا تفاصيل أحداثها، وأقصد بهما ابن مرزوق وابن الحاج النميري[2]، ويمكن أن نضيف إليهما ابن فضل الله العمري[3] وبدرجة أقل الحسن الوزان[4]. ولم نقتصر على المصادر المرينية، بل استعنا ببعض النصوص من مصادر الدول المعاصرة؛ وريثة الموحدين، وخاصة الحفصيين لملء بعض الفراغات استئناسا بها لا تأكيدا لما حوته. وقد وفرت كل هذه المصادر مادة جيدة ستساعد على وضع صورة واضحة للحركة في هذا العهد.

وسيتم تناول الموضوع من خلال محورين، يركز أولهما على تنظيم الحركة وثانيهما على وظائفها وإظهار دورها في ممارسة السلطة على أن يختم بتقييم للتجربة المرينية.

1 - تنظيم الحركة

إن تتبع محتويات مصادر الدراسة يبين أن المصطلح المفضل والأكثر تداولا لنعت تنقل السلاطين وأسفارهم هو كلمة حَرْكَة[5]، وأحيانا تستخدم كلمة غزاة[6]، لذلك اخترنا الأولى لكثرة تداولها واستعمالها.

(2) ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية، الجزائر، 1981.
النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قدح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة وبلاد الزاب، تحقيق محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

(3) العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: الممالك الإسلامية في اليمن والمغرب والأندلس وإفريقيا، ج4، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001

(4) الوزان محمد بن الحسن الفاسي، وصف إفريقيا، 2أج، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

(5) فيض العباب، ص. 399 و410 و411 و471، وابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر، ضبط خليل شحاده، دار الفكر، بيروت، 2000، ج7، ص. 243 و 244 و 291. تستعمل الكلمة في هذه المواضع مفتوحة بصيغة عربية فصيحة على عكس ما سيحصل في الفترات اللاحقة عندما سكنت بصيغة عامية، وقد وضحنا ذلك أيضا في مقالنا الخاص بالحركة في العهد الموحدي.

(6) نفسه، ص. 313.

1-1- ترتيب الموكب السلطاني

لا توفر المصادر معلومات أو وصفا دقيقا للموكب في السنين الأولى للدولة لكنها تشير بشكل عام إلى ما يميزه من الضخامة والفخامة، فهذا ابن أبي زرع يقول عن يعقوب المنصور عام 666هـ/ 1267م: «ثم خرج إلى تلمسان(...) في احتفال عظيم وزي عجيب، بالقباب والعيال والجيوش الوافرة والركاب والأموال»[7]. وحول حركة 670هـ يقول: خرج «في احتفال عظيم وأمر قبائل بني مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجبائهم في زيهم وأن يظهروا قوتهم ليغيظوا بذلك أعداءهم، فخرجت قبائل بني مرين بالجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجواري المولدات تقودها الرجال في أحسن زي وأتم جمال»[8]، وفي عام 710هـ/ 1310م «ركب [أبو سعيد عثمان] من قصر رباط تازة إلى خارج المدينة في زي عجيب واحتفال عظيم»[9]. فهذه النصوص الثلاثة تحيل على فخامة الموكب بشكل عام وفضفاض، لكنها لا تقدم لا عناصره ولا مكوناته ولا كيفية تنظيمه مما لا يسمح بالحكم على مستوى هذه الفخامة المذكورة. إلا أن السنين الموالية ستحمل وصفا دقيقا خاصة عند شهود العيان الذين ذكرناهم في التقديم. وقد اعتمدنا هذه المصادر لرسم خطاطة للموكب سندعمها من باب المقارنة والتوضيح بالرسم المستنبط من المعطيات التي قدمها الوزان.

(7) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1972، ص.305.

(8) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، دار المنصور، الرباط، 1972، ص.129.

(9) الأنيس المطرب، ص. 396.

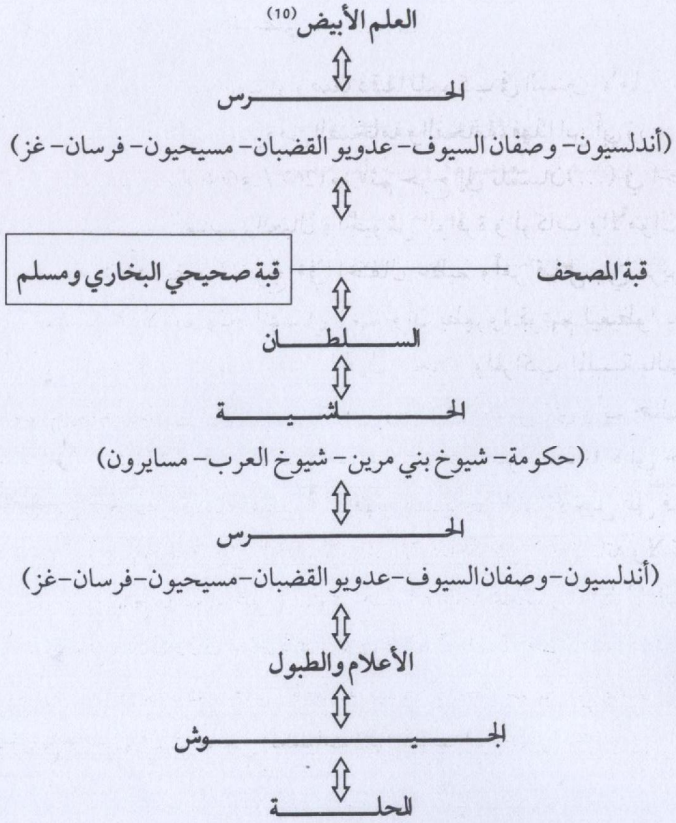

تنظيم الموكب السلطاني المريني

(10) فيض، ص. 227-223، المسند، ص. 456، العمري، ص. 109 و 133-132.

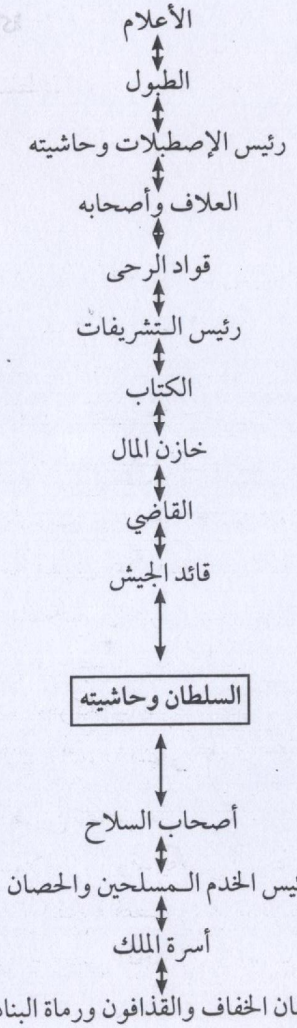

تنظيم الموكب السلطاني حسب الوزان[11]

(11) وصف إفريقيا، ج1، ص. 290.

ABBYY PDF Transformer+ Click here to buy www.ABBYY.com

2-1 - إعداد الحركة

عندما يقرر السلطان لسبب ما تنظيم حركة إلى جهة معينة تبدأ الاستعدادات على قدم وساق مبكرا. وتنطلق بإرسال الرسائل إلى مختلف المدن والقبائل لدعوتها للمشاركة والاستعداد الجيد وإخبارها بموعد الالتحاق بالسلطان، وقد يرسل مبعوثون للقيام بذلك تبعا لأهمية الحركة والجهة المقصودة. فقبل حركة يعقوب المنصور لتلمسان في عام 670هـ/ 1271م «سرح ولده وولي عهده أبا مالك إلى مراكش في خواصه ووزرائه حاشدين في مدائنها وضواحيها وقبائل العرب والمصامدة وبني ورا وغمرة وصنهاجة وبقايا عسكر الموحدين بالحضرة، وحامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو»[12]. ونفس الشيء تكرر قبل غزوتي 671هـ و676هـ[13].

وأثناء ذلك يقوم السلطان بإخراج فسطاطه ونصبه خارج البلد[14] كعلامة على صدق الخبر وعزمه القوي على الغزو، وتشجيعا للقبائل على التعجيل بالاستعداد والالتحاق بالتجمع واختبار مدى طاعتها، فإن أظهرت فتورا أو عدم اهتمام فككه وتراجع عن قصده. وقد ينصب الفسطاط أحيانا لترهيب العدو الذي يعلن عن نية توجيه الحركة إليه ذلك أن مجرد الإعلان عن الحركة كان يثير قلق القبائل عامة؛ فما بالك بالمتمردة منها، وقد تتوقف عن شغبها وعصيانها[15].

عندما تتجاوب القبائل تتقاطر على الحضرة من جميع الآفاق وتجتمع حول المدينة البيضاء قبل الانطلاق[16]. وقد يفضل السلطان تجنبا للازدحام والعنت أن تجتمع بالحضرة القبائل القريبة فقط على أن ينتظره الباقون على حدود البلاد الشرقية (تازة) أو الشمالية (قصر المجاز)[17] حسب وجهة الحركة. وفي مركز

(12) الأنيس، ص.309 والذخيرة، ص. 129 والعبر،ج7، ص.244-243.
(13) نفسه، ص.314.
(14) العمري، ج4، ص.132 والنميري، ص.233-232.
(15) لم نجد نصوصا صريحة خاصة بهذه الفترة ولكنها وافرة بالنسبة للأندلس كما ورد في مقالنا المذكور أعلاه.
(16) النميري، ص.220.
(17) الأنيس، ص.309 و314.

التجمع الأخير يستعرض السلطان القبائل والأجناد للتعرف على من حضر والتأكد من كفايتهم للغزو، ثم تفرق الأموال والخيل والعدد على بني مرين والعرب والأجناد[18]. ونظرا لكثرة أعداد المشاركين[19] وما يسببه من ازدحام في الطريق وتنافس على المرافق (الماء والمراعي خاصة)، يفضل السلاطين تقديم بعض الكتائب أمامهم[20] فتخفف الضغط من جهة وتفتح الطريق أمامهم من جهة ثانية، مما يجعلنا نعتقد أن في الأمر تخطيطا عسكريا لا يفصح عنه للعموم.

عندما تصل الاستعدادات إلى نهايتها يعلن عن انطلاق الحركة. وعادة ما يتم الرحيل بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب وشيء من الحديث من طرف الطلبة والمحزبين في حضرة السلطان[21]، وبعد انتهاء اجتماع السلطان بالوزراء وكاتب السر الذي يخصص لاستعراض القضايا الراهنة واتخاذ القرارات اللازمة[22]، وبعد قرع طبل الرحيل وركوب المشاركين ووقوفهم صفوفا وفق رتبهم المعلومة[23]. فإذا أسفر الصبح ركب السلطان يتقدمه علمه الأبيض والمصحف العثماني والمسند وبين يديه الرجال والخيل فيمر بين الصفوف ويسلم عليه الجنود بأصوات عالية وتقرع الطبول التي تحت البنود الكبار ثم تتوقف[24]، وآنذاك يشرع في المسير. ويتكرر هذا الاستعراض عند كل ركوب ونزول[25].

ولا نتوفر على نصوص تشير مباشرة إلى القراءة أثناء سير الموكب، لكننا وجدنا شهادة عن وجودها أوردها ابن أبي زرع عند حديثه عن غزوة الأندلس عام 676هـ تقول: «ثم أسرى إلى الأقواس فارتفعت هنالك أصوات المسلمين

(18) الذخيرة، ص.129 و العبر، ج7، ص.393 والنميري، ص.239.
(19) وصل في غزوة تلمسان عام 670هـ إلى 30 ألف رجل دون المرافقين، العبر، ص.244-243.
(20) النميري، ص.220.
(21) المسند، ص.455 و العمري، ج4، ص.132.
(22) نفسه، ص.456-455.
(23) نفسه، ص.456 والعمري، ص.132.
(24) نفسيهما.
(25) المسند، ص.463.

بذكر الله سبحانه والتكبير والتهليل حتى ارتجت الأرض من أصواتهم»[26]. ولا ندري هل هذا الأمر عام في كل الحركات أم لا، إلا أننا نرجح وجوده؛ حتى ولو في جزء من الطريق، بناء على التقليد المعروف عند الموحدين قبلهم[27].

وفق هذا النظام تتقدم الحركة نحو غايتها المرسومة وعلى وتيرة مضبوطة.

3-1 - سير الحركة

تنطلق المسيرة من ضواحي المدينة البيضاء، وبالرغم من أن المصادر لا تعطينا أي إشارة حول نظام السير إلا أن التقاليد التي ترسخت في المنطقة تؤكد أن الحركة تسير وفق نظام المراحل، بحيث تقطع كل يوم مرحلة (ما بين 30 و 40 كلم) وبعدها تنزل في محطة معروفة توفر حاجيات المشاركين من ماء وحطب وعلف ومرعى وأمن. إلا أن هذه السرعة قد ترتفع عندما يكون السلطان مستعجلا أو أثناء المرور من طريق غير آمن. وقد حصل هذا الأمر للأمير يوسف بن يعقوب في غزوة إشبيلية عام 684هـ عندما مر من طريق وعر ومخيف فجد في السير مما تسبب في تفرق موكبه واضطر بعد ذلك إلى انتظار المتخلفين والبحث عمن تأخر من الرجال[28]، وكذلك مع أبي عنان عندما خاف هجوم العرب[29].

وتظهر المصادر أن السلاطين كانوا حريصين على الحفاظ على نظام دقيق في الانطلاق وعند السير بإطلاق إشارات البدء واستعراض الجيوش عند الركوب والنزول في كل منزل، وكذلك الصلاة في جماعة والتوقف للصلاة إذا أدركتهم[30]. لكن الأحداث التي تسجلها نفس المصادر وخاصة بعد الهزائم أو أثناء المرور بأماكن الخوف تبين أن هذا النظام هش ولا يخضع لصرامة كبيرة. ففي حركته لعام 758هـ/1358م «ارتحل [أبو عنان] من قسنطينة مغربا غير مختار لنداء من

(26) الأنيس، ص.352.
(27) انظر مقالنا المشار إليه أعلاه.
(28) الأنيس، ص.352-353.
(29) فيض، ص.475.
(30) العمري، ص.110.

في محلته بقولهم: «الغرب الغرب» خرج من له بتونس كالفارين»[31]. وفي نفس الوجهة أصابت الحركة عاصفة قوية في نواحي وجدة فحصل شبه تمرد في أوساط الجيوش إذ تخلت عن أزيائها وسلاحها ومراسيم الأدب مع السلطان أبي عنان دون أن يقدر على عقابها، بل إن أعدادا منهم هربت بعدها كما يستنتج من هذا الكلام للنميري الذي يقول: «صدرت المراسم الشريفة بأخذ الهاربين، والأخذ بأفواه الشعاب على الذاهبين، واشتد في ذلك اشتدادا أسلم أقواما إلى العقاب والنكال»[32]. ويمكن تفسير ذلك بضعف الولاء للدولة المرينية ومعاصراتها من الدول في هذه الفترة والذي يرتبط بدوره بغياب قاعدة شرعية متينة كالتي مثلها المذهب التومرتي عند الموحدين.

ويطرح تموين هذا الحشد الهائل مشكلا حقيقيا. وإذا كانت بعض النصوص تظهر أن السلاطين يوفرون المؤونة للجيوش كما فعل أبو عنان عند عودته من حركة قسنطينة وتوقفه بالمسيلة حيث «أقام (...) حتى أثقلت ظهور الكراع، وحملت الأطعمة المختلفة الأصناف والأنواع، وأشعر الناس بالمسير على الصحراء»[33]، فالظاهر أن الأمر يتعلق بحاشية السلطان وأن باقي الناس أمروا بالتزود بما يحتاجون، وحتى إن عم الامر في هذه المناسبة فلأن السلطان غير الطريق المعهودة. هكذا فالمرينيون ـ عكس الموحدين ـ كانوا يكلفون السكان بتموين الجيش طوعا، كما يحصل مع بعض الولاة إذ يتطوعون لاستضافة الحركة كما فعل ابن مزني عامل الزاب في حركة قسنطينة حيث «رد عامة معسكره [أبو عنان] بالقرى من الأدم والحنطة والحملان والعلوفة ثلاث ليال»[34]، أو كرها، إذ تجبر القبائل على توفير الطعام والعلف للجيوش، وهي عادة عامة في العصر لم يخالفها إلا الموحدون، فالزركشي يذكر أن الحفصيين يفرضون التضييف

(31) ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التريكي، الدار التونسية، تونس، 1968، ص.175 والعبر، ج7، ص.394.
(32) فيض، ص.491-492.
(33) نفسه، ص.480.
(34) العبر، ج7، ص.394.

على القبائل في حركاتهم[35]. وفي نفس الاتجاه تكلف القبائل بكل أشغال الجيش من تسهيل للمرور وتهييء للطرق ونقل لآلياته الثقيلة وهدم لمباني الأعداء[36]، وخص الأندلسيون بإنزال الجيوش في مساكنهم[37]. وقد يتكفل الجيش؛ أمام قلة الضبط، بتوفير حاجياته عن طريق نهب واغتصاب ممتلكات السكان وخاصة الزروع التي تكون في الحقول أو البيادر. وإذا كانت المصادر المرينية تسكت عن الموضوع فإن التجاني الحفصي قد ترك نصا عن الحفصيين يعكس قسوة الجيش التي تجاوزت كل الحدود؛ يمكن الاستعانة به لتبين الأمر لا لتأكيد وجوده عند المرينيين، يقول فيه: «ووجدنا بعض المرابطين قد زرع على أحد جانبيه [وادي] زرعا بلغ في ذلك الزمان أن يكون علفا للبهائم مرعى، وقد قام عليه ليمنعه من الجيش مدلا برباطه، فآثرت دهماء الأجناد رعي الزرع على رعيه، وانجلى الأمر على إبطال كدح المرابط وسعيه»[38]. وغني عن التعليق أن نذكر بالأضرار التي تلحق السكان في ظل اقتصاد القلة الذي كانوا يعيشون عليه، وهذا ما يبرر الرعب الذي يصيبهم بمجرد سماع خبر تنظيم حركة إلى جهتهم حتى ولو كانوا موالين للسلطة القائمة.

وفي الأوقات العادية فأهل المحلة يتزودون من سوقها الذي يحتل حيزا كبيرا ويصل إلى درجة عالية من الضخامة. ويصف ابن أبي زرع سوق محلة شريش عند حصار المدينة من قبل يعقوب المنصور عام 684هـ قائلا: «أخبر من تفقد أسواقها من أهل البحث أنه رأى فيها أصناف الصناع، كل قد تلبس بصناعته واحترف بحرفته ما عدا الحياكة خاصة، وأما سوق الغزل والكتان فقد كانا بها، إذ أخذ سوق المحلة السهل والوعر، إذا غاب عنك رفيقك أو من تعرفه لا تكاد تلقاه إلا

(35) الزركشي محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ص.107.

(36) فيض، ص.448 و 450 و 274.

(37) نفسه، ص.284.

(38) التجاني عبد الله بن محمد، الرحلة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص.133.

بعد اليوم والثلاثة لكثرة الخلق»[39]، ويوضح الوزان أكثر عندما يقول: «خارج المعسكر، حيث تقام دكاكين الجزارين والبزازين وبائعي القديد، أما التجار والصناع الذين يتبعون الجيش فينصبون خيامهم بجانب خيام البغالين»[40]. فأنت ترى أن سوق المحلة ضخمة وتزداد حجما كلما طالت مدة إقامة الجيش وكثرت الغنائم، ومنها يتزود أهل الحركة بحاجياتهم من السلع والخدمات مقابل دفع قيمتها نقدا كما يصرفون فيها حصصهم من الغنائم.

4-1 - المنازل

تختلف أماكن نزول السلاطين مع أن النصوص تظهر أن المرينيين يفضلون النزول في معسكرات خارج العمران سواء كانوا على أبواب مدن كبيرة أو محطات صغيرة وفقيرة عمرانيا. ولم نسجل حالات لنزولهم في القصور إلا في العواصم الإقليمية كتازة، التي ينزلون في قصرها العثماني، وتلمسان[41] إضافة إلى مراكش والرباط. وأحيانا ينزلون في قصور بعض أوليائهم من رجال الدولة كما حصل لأبي عنان لما نزل بروض ابن داوس بتقاوس ببسكرة بالزاب[42]. أما في غير هذه المراكز فالنزول يتم في الفساطيط والأخبية التي شهدت صناعتها تطورا كبيرا وأصبحت رمزا للفخامة ومجالا للتفاخر بين رجال الدولة. ويبدو؛ على الأقل في بداية الدولة، أن مراكش كانت المركز الرئيسي لصناعتها[43]، وهذا ليس بالأمر الغريب ما دامت المدينة صاحبة الإرث الموحدي الضخم في هذا المجال. ويذكر ابن خلدون أن السلاطين كانوا يتباهون في الفساطيط في السفر وأنها بدأت بسيطة ثم صارت فخمة كنوع من الترف[44]. وكان السلاطين حتى عهد أبي الحسن ينصبون خباء واحدا لهم ولأسرهم وخباء يسمى خباء الساقة للاجتماع برجال

(39) الأنيس، ص.352.

(40) الوزان، ج1، ص.291.

(41) فيض، ص.493 و485.

(42) نفسه، ص.465.

(43) العبر، ج7، ص. 258.

(44) نفسه، ج1، ص.330-331.

الدولة[45]، ولما جاء أبو عنان بالغ في الفخامة واستحدث ما يسمى بالأفراك أو الأفراق وهو سياج من الكتان[46] وصفه بدقة كل من النميري والوزان لكن وصف الثاني أبسط لذلك سنورده، ويقول عنه: «هو سور من كتان على صورة أسوار قصر بشرفاته، مربع الشكل طول كل جهة خمسون ذراعا، يقام في كل زاوية برج صغير بشرفاته وسقفه، ويعلو سقف كل برج كرة جميلة تبدو وكأنها من ذهب. وفي السور أربعة أبواب، يقف عند كل واحد منها حرس من الخصيان. تضرب الأخبية داخل السور (...) وتقام حول السور خيام القواد. ويقرب رجال الحاشية إلى الملك»[47]. ويظهر من الوصف أنه قصر كتان حقيقي ومتنقل.

ويثير المخيم بفخامته وشساعته شهية اللصوص أو بعض القبائل المعارضة مما يعرضه للتسلل أو الهجوم لذلك تضرب عليه حراسة طول الليل.[48]

وتلحق هذه المعسكرات أذى كبيرا بالبيئة نتيجة التلوث الكبير الذي تسببه فضلات الجيش، وقد وعى المعاصرون ذلك وتجنبوا أذاه، فهذا يعقوب المنصور يأمر بتغيير موقع محلته بوادي لك استقذارا له لطول إقامة الناس به وملئهم له بالفضلات[49].

وينشغل السلاطين أثناء التوقف بأنشطة كثيرة تملأ معظم أوقاتهم.

تمثل الأعمال الإدارية الشغل الأول لهم إذ يقضون فيه جل وقتهم، فهم يستقبلون ولاة وعمال المنطقة ويستفسرونهم عن شؤونها كما يحاسبونهم على كل تقصير أو تجاوز، ويعينون ولاة جددا عند الحاجة، ويتلقون زيارة شيوخ القبائل ووفودها وعلمائها ومتصوفتها فيسألون الجميع عن أحوال البلاد ويستدرون

(45) الأنيس، ص.309 والذخيرة، ص.130 والمسند، ص.335.
(46) العبر، ج1، ص.331.
(47) الوزان، ج1، ص.290-291.
(48) الأنيس، ص.353 وفيض، ص.259-260.
(49) الأنيس، ص.351.

الدعاء من الأواخر[50]. ويجبرون القبائل التي توقفت عن أداء جباياتها على دفعها بعد المحاسبة وعن كل السنين التي مرت[51].

وحظي قضاء المظالم والحسبة بعناية كبيرة خاصة من قبل أبي الحسن وأبي عنان، حيث عوقب قضاة وولاة أحباس وزعماء قبائل خاصة العربية بالمغرب وإفريقية عقوبات وصلت إلى حد القتل[52].

ويستغل السلاطين المناسبة أيضا لجلب الأتباع والأولياء ونشر الدعاية في البلاد بالمنح والمكافآت التي يفرقونها على بعض الناس والعلماء وخاصة المتصوفة والأولياء، ثم الصدقات التي توزع على العامة والمعوزين والمساجين والمعسرين[53].

ولا ينسى السلاطين الراحة والاستجمام فيعقدون مجالس المسامرة بعد صلاة العشاء بحضور الوزراء والعلماء والشعراء للمذاكرة في شؤون العلم وسماع الشعر وقصائد المديح[54]. ويزورون بعض المنشآت العمرانية التي أنشأوها أو التي تركها الأولون وأضرحة الأولياء تبركا بها[55]، ويلعبون الشطرنج[56]، ويحضرون لعب الجيوش البرية والبحرية الاستعراضي[57].

ويمثل الصيد هواية محبوبة عند المرينيين يبدو أنها تخلفت من ماضيهم في الترحال والبداوة[58]. ويصطادون الكركي (الغرانيق)؛ وهو صيد الملوك، والحمر والبقر والنعم والغزلان والمها والأرانب والحجل باستعمال البزاة (الصقور)

(50) فيض، ص. 251 و254 و285-286 و381 و456 و490، المسند، ص.327.
(51) نفسه، ص.465 و 403.
(52) الأنيس، ص.392-391 والمسند، ص.312-311 و307-306 وفيض، ص.201 و282 و285-286.
(53) المسند، ص.327 وفيض، ص.231-232.
(54) المسند، ص.464 وفيض، ص.242 و441 365.
(55) فيض، ص.203-201 و266 و418-417 و470-438 و 204 و266 و486.
(56)- الوزان، ج1، ص.291.
(57) الأنيس، ص.358 و362.
(58) الوزان، ج1، ص.291.

ABBYY PDF Transformer+ Click here to buy www.ABBYY.com

والكلاب الضارية[59]. ويخرج السلاطين للصيد أثناء سير الحركة، بحيث ينسلون من الساقة مع الخواص والوصفان ويمارسون الطراد لبعض الوقت قبل العودة إلى الموكب، أو أثناء التوقف في المنازل[60].

وتمثل الحركة فرصة للفرجة والمتعة للساكنة المقيمة في المنزل أو قريبا منه، حيث يجتذب منظر الجيش بلباسه الأبيض وأسلحته المتنوعة وخيوله المزينة ونظامه ولعبه الاستعراضي وغناء جواري السلطان[61] انتباه الجمهور وفضوله، ويضاف إلى هذا حرص المرينيين على تنظيم حفلات الاستقبال خاصة بالمدن. ويذكر ذلك النميري بمناسبة حلول أبي عنان ببجاية فيقول: «وأشخص من الوزراء والخواص من اعتمل في ترتيب القبائل وحفظ نظام الجحافل»[62]. وكانوا يلزمون كل أصناف الحرف بالمشاركة فيها فيحضرون وقد «تميز كل صنف من أرباب الصناعات والحرف الموفرة للبضاعات بأعلام فيها صور الآلات التي يستعملونها خصوصا، ويبدون على الانفراد بشعارها ظواهرا ونصوصا، وتوشح جميعهم بالبياض الرائق المزري بأقحوان الحدائق، واحتملوا القسي البديعة الحسن، وتقلدوا السيوف المعتاص وصفها على اللسن»[63].

وكان الجمهور يتجاوب مع هذه الاحتفالية في كل مكان تمر به الحركة في المدن والقرى والمغرب وإفريقية والأندلس، وقد وصف النميري ذلك بتفصيل في تلمسان وتازة وطولقة وبسكرة وفاس[64].

هكذا يكون مرور الموكب مناسبة لتجمع أعداد كبيرة من الناس مرغمين لما يقتضيه بروتوكول الاستقبال (أرباب الحرف وأولياء السلطان) أو مخيرين بدافع الفضول وحب الفرجة؛ وربما، الطعام الذي يعقب الاستقبال. فمرور الحركة

(59) العمري، ج4، ص.121 وفيض، ص.194-195 و494.
(60) فيض، ص.194-195 و494.
(61) نفسه، ص.265 و496-497.
(62) نفسه، ص.263.
(63) نفسه، ص.498.
(64) نفسه، ص.484 و492 و444 و437 و495-498.

موسم تجتمع فيه كل أشكال اللهو واللعب مما يسوق لصورة السلطان ودولته.

وعلى هذا الشكل تنظم الحركة في صورتها المكتملة في أوج الدولة لكن علينا أن نتذكر ولا ننسى أنها بدأت بسيطة قبل هذا النضج وأن نستحضر المستويات الوسيطة لها. فما هي الوظائف التي تؤديها؟

2 - وظيفة الحركة:

2-1 - رمزية الحركة

إن التمعن في تركيب الموكب السلطاني وتنظيمه يكشف أننا أمام اختزال قوي ومعبر عن كل مكونات الدولة المرينية مذهبيا وسياسيا وإداريا، إنه تلخيص وتركيز لتصور المرينيين للسلطة.

يتخذ الموكب شكلا هرميا يحتل قمته العلم الأبيض وقاعدته المحلة.

العلم الأبيض شعار الدولة ويسمى أيضا العلم المنصور «وهو أبيض مكتوب بالذهب نسيجا من الحرير آي من القرآن بدائر طرته وحوله»[65]، ولكن المصادر لم تحتفظ بأي معلومات حول الآيات المكتوبة عليه[66]. ووجود هذه الآيات دليل على تمسك الدولة بالقرآن ومن ورائه الإسلام واتخاذه نبراسا ونهجا مرشدا. ولو حاولنا أن نفترض بشأن الآيات المكتوبة لاتجهنا إلى إثبات آيات في التوحيد والتمسك بالرسالة المحمدية.

ويتأكد هذا عند المستوى الثالث حيث القبتان و«لهما غشاءان من الحرير مذهبان من أبدع ما تراه العين (...) فأما القبة الأولى ففيها مصحف عثمان ابن عفان (...) أما القبة الأخرى ففيها صحيح البخاري وصحيح مسلم أحسن

(65) العمري، ج4، ص.133.
(66) لم يجد محمد المنوني أي شيء في شأن ذلك فلم يتطرق للأمر، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص.156.

ما ألف في الحديث»[67]. وهذا تعبير صريح عن مذهب الدولة السني ومصدر التشريع عندها. وبتقديم السلطان لهما؛ مع ما يفترض أن يتضمنه العلم الأبيض، يكون كمن يقول للأولياء والأعداء على حد سواء إنني في خدمة الإسلام ومستعد للدفاع عنه وهو الحكم بيني وبينكم. وقد تنبه المعاصرون إلى ذلك فنقل ابن مرزوق نصا للمراكشي ينبه إلى هذه الدلالة عند الموحدين جاء فيه: «إن هذه الراية منذرة بإطلال صاحبها على مقصوده وأنه داع إلى ما يقتضيه الكتاب والسنة فمن أطاعه كان سلما له ومن عصاه حاربه بهذا الجيش الذي هو من حزبه»[68]. ويتقوى الأمر أكثر بالحرص على قراءة حزب من القرآن قبل كل ركوب والتكبير والتهليل أثناء السير ومرافقة القراء والمؤذنين والصلحاء للموكب. إنه موكب التقوى والورع والأحق بأن يتبع ويرضخ لصاحبه الذي يحكم بالشرع ويعمل به.

وفي مرتبة رابعة يأتي السلطان وحاشيته التي تكون خلفه ومتأخرة عنه ولا يحاذيه في السير إلا من يطلبه لأمر ما. فهو صاحب السلطة الأول وصاحب القرار في كل شيء أما الآخرون فتبع له ومنفذون لأوامره، وهو أيضا الساهر على حماية الشرع الذي هو أمامه مباشرة.

في المستويين الثاني والخامس نجد الحرس السلطاني بمكوناته المختلفة، فهو يحيط بالسلطان والرموز الدينية على حد سواء وهو الوحيد المسموح له بتقدمهما.

(67) فيض، ص.225-226. والمصحف الذي يدور الحديث عنه ليس سوى ذاك الذي اعتاد الموحدون حمله في حركاتهم بعدما جلبوه من الأندلس. وقد بقي معهم حتى عام 646هـ عندما انهزم السعيد أمام يغمراسن بتلمسان فنهب معسكره وضاع المصحف، لكن يغمراسن وجده وصانه، وصار موضع تنافس بين المرتضى الموحدي والمستنصر الحفصي والغالب بالله النصري، كل يحاول أخذه منه لكنه ضن به عليهم وتوارثه خلفاؤه. (المسند، ص.460-461). وتختلف الروايات حول كيفية وصوله إلى المرينيين فابن أبي زرع وابن خلدون يقولان إنه كان هدية من أبي عبد الله ابن الأحمر لأبي يعقوب يوسف المريني عام 692هـ (الأنيس ص.383، العبر، ج7، ص.286)، والمصادر الأخرى تؤكد أن أبا الحسن أخذه عند دخول تلمسان عام 737هـ وهذه الرواية أرجح لكون أصحابها شهود عيان ومقربين من الطرفين (المسند ص.461 والزركشي، تاريخ، ص.646) إلا أن يكون ابن الأحمر أهدى مصحفا آخر فاختلط الأمر على ابن أبي زرع مع أن في عبارة ابن خلدون (فيما زعموا) ما يرجح ذلك. وضاع مرة ثانية في وقعة طريف وبذل أبو الحسن أموالا طائلة لاستعادته عام 745هـ بعدما ضاعت أغشيته ومزق وشي دفتيه (المسند ص.461).

(68) المسند، ص.462، وهو ينسبه لابن عبد الملك لكنه للمراكشي، المعجب، ص.69.

وهنا نسجل الهاجس الأمني الذي صار يسيطر على الدولة، وكذلك تقديم القوة العسكرية كوسيلة أولى لتثبيت سلطتها وشرعيتها، وبذلك يكون المذهب الديني في مرتبة ثانية. وهذا يعكس واقع الحال إذ الدولة لم تقم على مذهب محدد كمنطلق، ويمكن أن نستنتج ذلك حتى من الزخرفة التي خص بها المصحف والصحيحان؛ غشاء من الحرير وأغشية ودفات مزركشة إن لم تكن موحدية، فلا مجال للمقارنة مع الاحتفاء الموحدي بهما.

ويحاول الموكب أن يظهر فخامة الدولة في كل شيء وفي كل لحظة ليطمئن الأولياء ويرعب الأعداء والمتربصين بداية بالعلم الكبير ومرورا بالأعداد الكبيرة من الأعلام التي وصلت إلى مائة في عهد ابن خلدون[69]، وهي «ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير»[70]، ومتعددة الأعراض والألوان بين الأبيض والأخضر والأحمر والأصفر وغيرها من الألوان المتفرعة منمقة بأنواع التطريز والخطوط[71]. ويقف أصحابها خلف السلطان وحاشيته. وهي تضفي جمالية على الموكب وترهب المشاهدين بقوة الدولة وفخامة الملك. ولا يقتصر الأمر على هذه الأعلام بل إن لكل قبيلة علمها الذي تجتمع حوله وتعرف به[72]، ولا ندري هل أدخل ابن خلدون هذه الأعلام في إحصائه أم لا، فإن لم يفعل فعدد الأعلام سيتجاوز عند ذلك المائتين، وإذا أضيفت إليها أعلام أهل الصنائع عند الاستقبال داخل المدن صار العدد أضخم وأكبر. وتحت البنود يقف أصحاب الطبول التي بلغ عددها المائة في عهد أبي الحسن[73] ما بين الصغير والكبير، و«ضرب الطبول محفوظ لأهل بيت خاص بهم من أهل مراكش»[74] مما يقتضي وجود طريقة دقيقة في ضربها ورثت عن الموحدين. وفصل الوزان

(69) العبر، ج1، ص.321 وج7، ص.357.

(70) نفسه، ج1، ص.321.

(71) فيض، ص.8-497.

(72) الذخيرة، ص.130.

(73) العبر، ج1، ص.321.

(74) العمري، ج4، ص.130.

ABBYY PDF Transformer+ Click here to buy www.ABBYY.com

في شأنها قائلا: «للملك طبالون كثيرون مزودون بطبول نحاس على شكل جفان كبار عريضة من أعلى ضيقة في أسفل مع جلد ممدود على أعلاها. ويحمل كل طبل حصان رحل، ويعادل بثقل موازن لأنه ثقيل جدا (...) يعتبر فقدان طبل من هذه الطبول عارا كبيرا، تدوي هذه الطبول دويا مفزعا، ويسمع دويها من مسافة بعيدة، فترتجف الخيول والرجال منها، وتقرع بعصب الثور»[75]. وتقرع عند ركوب السلطان وعند استعراضه للجيوش وعند قربه من المنزل[76]. ويظهر أيضا أنها تضرب وقت القتال. ويؤكد النميري ما ذكره الوزان من قوة تأثيرها عندما يقول عنها: «ألسنة عز نطقت فأنست زئير الأسود الضراغم (...) وملأت القلوب هيبة وروعا (...) وبشرت بالنصر»[77]

ويلحق بهم الزمارون الأتراك والنافخون في الأبواق الذين تتكفل المدن بنفقاتهم، ويستعملون عند الحرب[78].

ويساهم السلطان في دعم طابع الفخامة من خلال زيه وزي رجاله، ويشتمل على «عمائم طوال رقاق، قليلة العرض من كتان، ويعمل فوقها إحرامات يلفونها على أكتافهم من الجباب، ويتقلدون بالسيوف تقليدا بدويا، والأخفاف في أرجلهم (...) والمهاميز، ولهم المضمات وهي المناطق، ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو يوم التمييز (...) وتعمل من فضة، ومنهم من يعملها ذهبا، ومنها ما يبلغ ألفي مثقال»[79]. ويصف ابن مرزوق لباس أبي الحسن فيقول: «ويختص سلطانهم بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف سواه»[80]. «وأكثر لباسه في المحافل الأبيض (...) كان يؤثر لباس الأحمر والأخضر (...) يؤثر الأصفر (...) كان يلبس الخز بعد مفاوضة علماء عصره (...) ويلبس

(75) الوزان، ج1، ص.288.

(76) المسند، ص.456 والعمري، ص.132-133 وفيض، ص.455.

(77) فيض، ص.227.

(78) وفيض، ص.223 والوزان، ج1، ص.288.

(79) العمري، ج4، ص.130

(80) نفسه.

خاتم الذهب على عادة الملوك» وبدله بخاتم فضة، و«في يده السكين التي لا يفارقها»[81]. هل هناك فخامة أكثر من هذه، ألا يبهر هذا الزي كل من رآه؟

وتساعد هيئة الحرس المرافق في زيادة الهيبة، وتحفل مصادرنا بمجموعة من التفاصيل والدقائق حول مظهره. فالعمري ينقل: «وبين يديه [السلطان] الرجالة والسلاح والخيل المجنوبة ببراقع الوشي»[82] ويواصل النميري قائلا: «لقواد الترك طبنخالات تحفظ نظامهم الشرقي ومزامير هائلة مما عرفوا الملك المصري، وبأعلى أعلامهم الشعر الذي جعلوه شعارا. ولسائر القواد أيضا زي تميزوا به في العساكر (...) وعلى جميع هؤلاء الأصناف أنواع الأقبية التي حسن لها التمييز، وكاد يقطر منها الذهب الإبريز (...) وفوقها المصفحات من الحلل والأنزاق، والأثواب البديعة المجلوبة من أرض الشام وأرض العراق، منسوقة بها المسامير المذهبة (...) والدروع الداودية (...) أما القلانس والشواشي المذهبة والمفضضة فتلك التي باهت الشموس (...) اختص خيول الأجناد الأندلسيين بالبراقع البديعة الجمال المرسلة إرسال السجوف على ربات الدلال، وقد جعلت الكواكب الجلاجيل سماء (...) فملأت الجو أصوات أجراسها (...) خلف هؤلاء الفوارس (...) جموع الأندلسيين المغاورين المرتجلة قد لبسوا الأقبية المختلفة الألوان وجعلوا فوق رؤوسهم الرتافيل التي هي أبدع من نور البستان واعتقلوا بالعصي الطوال (...) والعدويون اللابسون لأحسن الأثواب (...) بأيديهم القضبان»[83].

لباس جميل متناسق مذهب ومفضض وخيول جميلة ومبرقعة، وأسلحة مرصعة ألا يبهر كل هذا ويرعب؟

وتكتمل الصورة بالهوادج التي ألف المرينيون استخدامها لحمل الجواري الحسان بالألبسة والحلي الرائقة والأصوات العذبة الناطقة «بذكر أيام الحروب

(81) المسند، ص.129-130 و186.

(82) مسالك، ج4، ص.132.

(83) فيض، ص.223-225.

والملاحم (...) داعيات إلى ركوب الجياد، والكر إلى مآزق الجلاد، وسل السيوف الباترة من الأغماد (...) والمدافعة عن الحريم والذياد عن الحمى»[84].

وتكون لكل هذه الرموز قيمة ودور بفضل حضور الجمهور الكبير وعيون وجواسيس الأعداء والمنافسين. وكان هذا المشهد أحيانا كافيا لإخماد ثورات وانحلال عزائم زعمائها. ويجب أن نشير إلى أن النصوص لم تحمل؛ ولو مرة واحدة، ما يعطي الانطباع بتبرك الجمهور بالسلطان، وهذا؛ ربما، يؤكد ضعف الشرعية لدى المرينيين إذ لم ينجحوا في إقناع الرعية بزعامتهم الدينية وحقهم السماوي في الحكم وقداسة شخوصهم.

ويحضر الحركة كل الجهاز الحاكم سلطانا ووزيرا وكاتب سر وشيوخ بني مرين والعرب وقواد الجيش وأصحاب الدواوين والقاضي والعلماء والصلحاء، إنها الدولة كاملة. وفي كل منزل يجتمع السلطان برجاله للتداول في كل الأمور الخاصة بالدولة[85]. وتلعب المراسلة دورا أساسيا في التواصل بين السلطان وباقي المناطق، حيث يتحول المنزل الذي ينزله السلطان إلى مركز للدولة وعاصمة لها منه تنطلق المراسلات وإليه تنتهي[86]، وتلتحق به الوفود من مختلف البقاع للسلام والتهنئة والبيعة في المناسبات[87]، كما يتوجه إليه عمال الجبايات بأموالهم وقد تحدث عنهم ابن خلدون عندما تكلم عن القبض على أتباع المرينيين بقسنطينة بعد هزيمة أبي الحسن بالقيروان حيث قال: «وفيهم عمال المغرب قدموا عند رأس الحول بجباياتهم وحسبانهم»[88]

إن الرموز التي تحملها الحركة تظهر أن دورها جد معقد وأنها وسيلة متنقلة للحكم تسمح بالاقتراب من مواقع الأحداث وتجعل حضور السلطان ممكنا

(84) نفسه، ص.234.
(85) نفسه، ص.490 والمسند، ص.455-456.
(86) نفسه، ص.256 و285 و366.
(87) نفسه، ص.251-253 و256 و381.
(88) العبر، ج7، ص.367.

في كل مناطق مملكته، كما تسمح بتبادل الأدوار بين حاضرة الملك وباقي مدن ومناطق البلاد.

2-2 - أعمال الحركات والسلاطين

تكاد المصادر تجمع على أن ما يحرك حركات المرينيين دوافع عسكرية وسياسية في المقام الأول إضافة إلى زيارة مقابر الأسلاف بشالة والتي ظهرت مع أبي سعيد عثمان عام 710هـ وكررها أبو عنان عام 758هـ[89]، لكن هذه المحركات تبقى الوجه الظاهر للعملية إذ تخفي دوافع أعمق؛ وربما، حتى السلاطين وأهل العصر لم يدركوها ولا تكتشف إلا من خلال الرموز المعروضة أعلاه وأعمال السلاطين خلالها.

إن تتبع خط الحركات حسب تطور الدولة يعطينا الصورة التالية:

- **قبل 674هـ**: فاس ↔ الرباط ↔ مراكش ↔ الرباط ↔ فاس ↔ تلمسان ↔ فاس.
- **(674هـ-692هـ)**: فاس ↔ الرباط ↔ مراكش ↔ الرباط ↔ فاس ↔ قصر المجاز ↔ الأندلس ↔ قصر المجاز ↔ فاس ↔ تلمسان ↔ فاس.
- **الثلث الأول من ق8هـ**: فاس↔ الرباط↔ مراكش↔ الرباط↔فاس ↔ تلمسان↔فاس
- **بعد ضم إفريقية**: فاس ↔ الرباط ↔ مراكش ↔ الرباط ↔ فاس↔ تلمسان ↔ إفريقية ↔ تلمسان ↔ فاس.

(89) نفسه، ج7، ص.320 و العمري، ج4، ص.136 وفيض، ص.194.

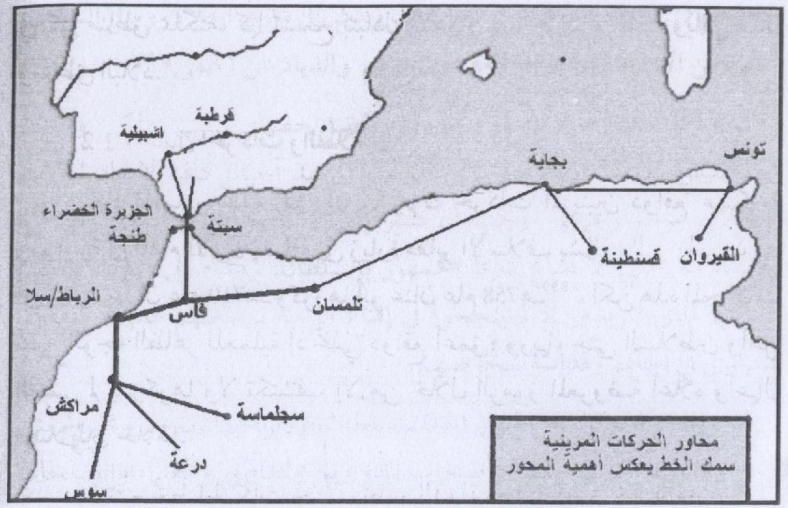

من خلال تأمل هذه الخطوط يمكننا بسهولة أن نسجل أن هناك حركة مكوكية تتخذ اتجاهات شرق (تلمسان وما حولها) وجنوب (مراكش وما وراءها: سوس- درعة- سجلماسة) وشمال (الأندلس) بشكل متناوب. وهذا يكشف الرغبة القوية للسلاطين في الحضور الدائم في مجال الدولة، فكأن الحركة وسيلة لتحديد الحدود في عصر لم تكن فيه مرسومة وإنما تعتمد على معالم طبيعية أو بشرية (قبائل) غير مضبوطة، وتحديد علاقات هذه الهوامش بالمركز الذي هو الحاضرة فاس. فالتحديد يتم انطلاقا من المركز وليس من الهوامش كما يفترض (على طريقة انتشار الذبذبات في الماء). وتتعدد المراكز بتعدد المدن الإقليمية بحيث تشكل كل واحدة مجالا خاصا يتحكم فيه من يحتلها. وبتتبع الحركات نجد أن المجال المريني مقسم إلى سبع وحدات حسب توسع الدولة التدريجي: **فاس وشبه الجزيرة الطنجية** (طنجة- قصر المجاز- سبتة) **والجزيرة الخضراء** (أغلب الأراضي الأندلسية) **والرباط ومراكش** (أقاليمها: سوس- درعة- سجلماسة) وجهات من **تلمسان** وأحوازها **وإفريقية** (بجاية- قسنطينة- تونس). وتشكل هذه الوحدات حلقات حول حاضرة الملك التي هي فاس أو أي مكان يستقر به السلطان مهما

كانت بساطته، إنه مجال متحرك مع حركة السلطان الذي يشكل القطب ومركز الجاذبية في الدولة، فكل العناصر تعيد نظامها بسرعة لتساير تنقله.

إذن فضعف وسائل الاتصال والقوة العسكرية الدائمة للتحكم في الهوامش يعوض بحضور السلاطين المادي والمعنوي عبر تحركاتهم الدائمة والمستنزفة. فهي تحركات لازمة وضرورية وكل سلطان فشل في الحفاظ على استمرارها لا يعمر طويلا في الحكم.

وتعمل الحركة أيضا على تحديد مجال آخر، وهو حدود سلطات عمال السلطان وممثليه، فهو يعمل على كبح جماحهم وميلهم إلى الاستبداد بالأمور والاستفراد بها دونه. فهذا أبو الحسن في زيارة له إلى مراكش يستجيب لشكايات السكان ضد متولي الأحباس فيحاسبه بشدة، لكن ثبوت عدله جعله ينصفه[90]. ولما زار طنجة وجهت إليه شكايات مفحشة في حق القاضي أبي محمد بن المليق فأمر بإسكات العامة[91]، وإذا كان مصدرنا لا يخبرنا بمآله فالمؤكد أنه حوسب. وفي زيارته لشالة عام 758هـ حقق أبو عنان في أحوال قاضيها البجائي لميله عن الحق ورفع مظالمه[92]. وفي ميلة أنصف الشيخ على بن ثابت من قائدها[93]. فكما يلاحظ فهذه الأعمال تتكرر في كل مكان من أرض الدولة مما يؤكد الرغبة في التحكم في هؤلاء الممثلين لسلطته وإنصاف المظلومين. ولم تسلم القبائل العربية المتجبرة بإفريقية من سطوة السلاطين، فأبو عنان يقيم «البريح» بزوال كل كلفها الضريبية المتعلقة بالخفارة والحماية[94]، بل أكثر من ذلك فرض عليها أداء ضرائبها المتأخرة لأربع سنوات بعد الحساب الدقيق[95].

(90) المسند، ص.311-312.
(91) نفسه، ص.306-307.
(92) فيض، ص. 201.
(93) نفسه، ص.286.
(94) نفسه، ص.282.
(95) نفسه، ص. 403، 465.

وتحظى العامة في الحركات بعناية تهدف إلى دغدغة مشاعرها وكسب ودها وضمان ولائها، فإضافة إلى أعمال الإنصاف من العمال والقضاة وولاة الأحباس والقبائل العربية المتسلطة، كانت تحظى بالهبات والصدقات ويفسح لها المجال لتقترب من السلاطين وتكلمهم دون حواجز أو وسائط، ويحتفظ النميري بمجموعة من الأعمال التي قام بها أبو عنان عند دخوله قسنطينة عام 758هـ ومنها:

- الصدقات على الفقراء والمساكين.
- إجراء مرتبات لفقراء يرتبون في مساجدها.
- تخصيص كسوة سنوية لشيوخ المساجد.
- ختان أولاد الضعفاء كل يوم عاشوراء ومدهم بإحسان.
- منح الفقراء أضحيات العيد.
- إقامة أفراح المولد النبوي.
- أداء ديون المعسرين المسجونين والأموات.
- تخصيص جرايات للسجناء الفقراء.

وضمن ذلك ظهيرا قرئ بالمسجد الجامع بحضور عامة الناس.

إن الحركة تثبيت لسلطة السلاطين على مجالهم الترابي والسياسي والإداري وتصحيح للأوضاع في الأقاليم وتوزيع لبعض اهتمام السلاطين عليها، لذلك نجد العامة تفرح بخبرها عكس الولاة والأعداء الذين يتوجسون منها ويخافون عواقبها.

خاتمة

نجحت الحركة المرينية في أن تحقق لنفسها صورة خاصة على صعيدي التنظيم والوظيفة رمزيا وعمليا. وقد تمكنت من الزيادة من مظاهر الفخامة على النموذج السابق من ناحية الرموز والأدوات المستعملة، كما نجحت في احتواء المجال الترابي والسياسي والإداري للدولة بقمع العداء وإسكاتهم وكبح جماح العمال والإداريين وكسب ولاء وود الرعية بما تمارسه من قضاء للمظالم وحسبة وإحسان وأعمال بر. ومن خلال تتبع مكوناتها بدا واضحا أنها كانت عالة على النموذج الموحدي الذي أخذت منه الكثير من العناصر وكذلك طريقة تنظيمها وترتيبها، لكنها انفتحت أيضا على تجارب أخرى ومنها التجربة المصرية والشامية والعراقية وكذلك الإرث التاريخي لبني مرين وتقاليد العرب في شمال إفريقيا. وهي في هذه الحال تثبت أنها تدخل في إطار الاستمرارية التي عرفها الغرب الإسلامي بداية بالأمويين بالأندلس ومرورا بالموحدين ووصولا إلى الحفصيين.

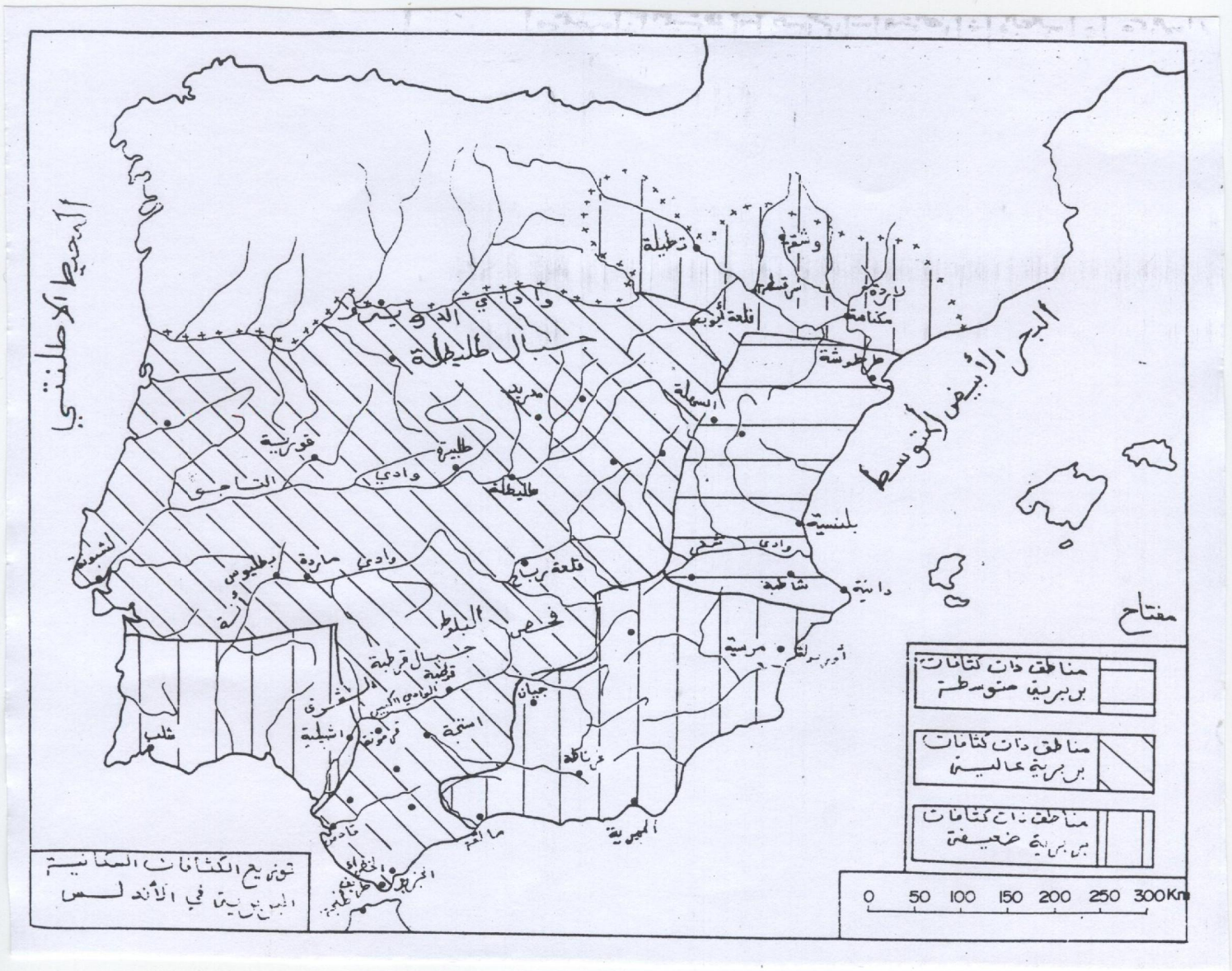

توزيع الكثافات السكانية البربرية في الأندلس
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلنتي
جبال طليطلة
فحص البلوط
جبال قرطبة
مفتاح
مناطق ذات كثافات بربرية متوسطة
مناطق ذات كثافات بربرية عالية
مناطق ذات كثافات بربرية ضعيفة
0 50 100 150 200 250 300Km
طليطلة
مدريد
طلبيرة
قورية
بطليوس
ماردة
قلعة رباح
قرطبة
اشبيلية
استجة
جيان
غرناطة
المرية
مالقة
شلب
الجزيرة الخضراء
بلنسية
شاطبة
دانية
مرسية
السهلة
طرطوشة
مكناسة
قلعة أيوب
تطيلة
وشقة

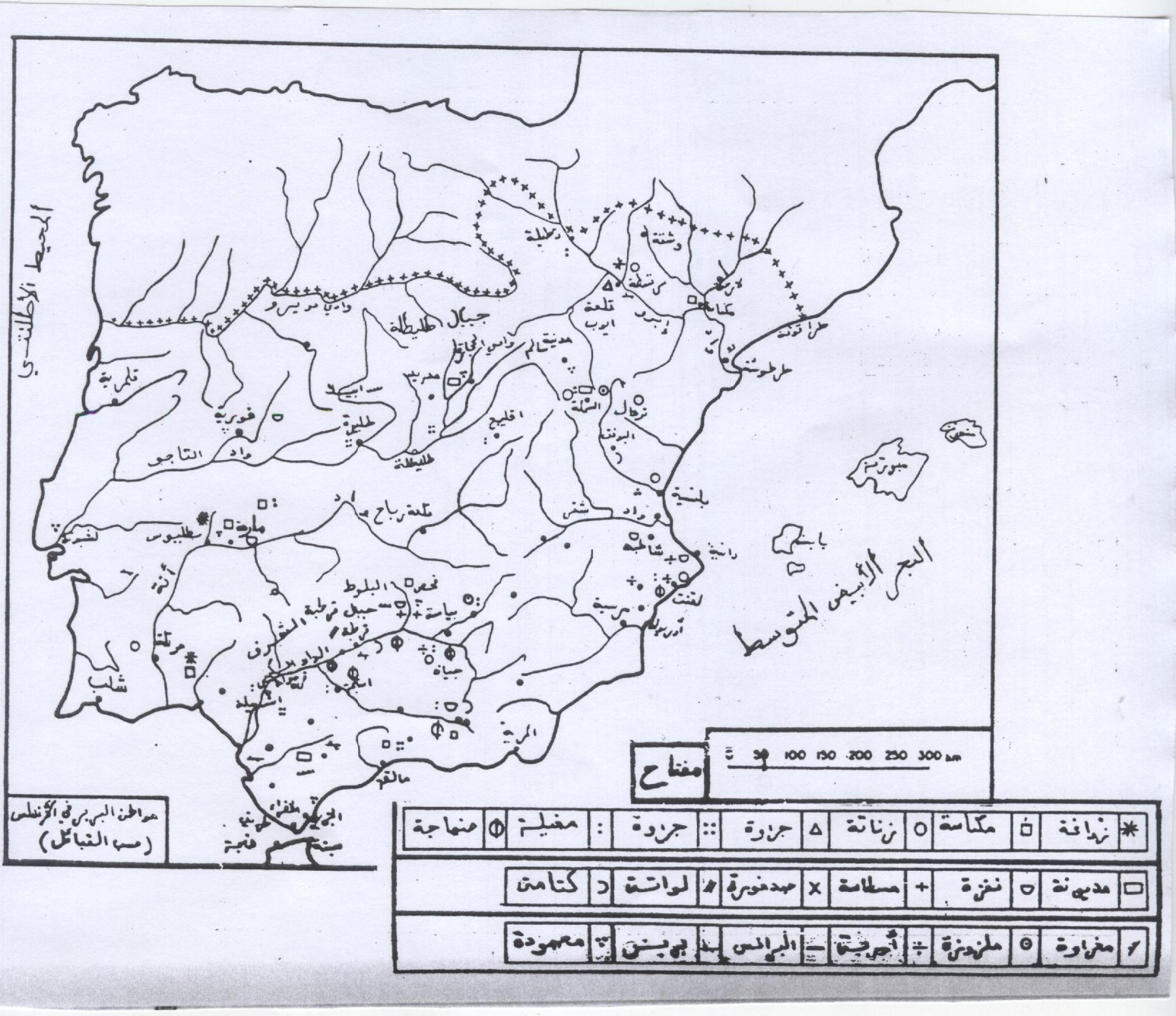

مواطن البربر في الأندلس (حسب القبائل)